

سيمائية القصّ النبوي في "حديث الغار"

The semiotics of the prophetic narration in (Hadith Al Ghar)

طواهرية سامية *

تاريخ النشر: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2023/01/17	تاريخ الإرسال: 2021/12/22
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يخضع القصص النبويّ خضوعاً تاماً للغرض الديني، فمضمونه تربويّ إسلامي يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية، وتوجيهها إلى الانسجام مع التعاليم الإلهية. ويأتي البيان النبوي في أرقى حدّ إنساني للبلاغة دون منازع؛ مما يدعو للاهتمام به. تطمح هذه الدراسة إلى مقارنة "حديث الغار" كنصّ قصصي قصير بإجراءات سيميائية حدثية؛ من حيث بنياته القصصية، وشخصياته المحورية، ثمّ المكان القصصي، ختاماً بتحليل بناء الحدث القصصي، بالتركيز على مفاصله الأساسية، ودراسة تطوره، وذلك كله في حدود ما يسمح به هذا المجال.

الكلمات المفتاحية: سيميائية _ القصة _ الحديث النبوي.

Abstract:

The prophetic narrations are completely subject to the religious purpose, as its Islamic educational content aims at refining the human soul and directing it in harmony with the divine teachings. The prophetic statement comes at the highest human limit of unchallenged eloquence, which is interesting. This study aspires to approach "Hadith Al Ghar" as a short narrative text, with modern semiotic procedurest; In terms of its

* مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة العقيد أحمد دراية، أدرار. touahriasamia@outlook.com

anecdotal structures and pivotal characters, then the Story place, Finally, the analysis of the construction of the event. All of this is within the limits of what this area allows.

Key words: semiotics, story, prophetic narratives

*** **

المؤلف المرسل: طواهرية سامية touahriasamia@outlook.com

مقدمة:

تَبَوَّأَ الحديث النبوي الشريف رأس البلاغة الإنسانية، فَشَرَّفَ بمعناه؛ كونه مصدراً ثانياً للهداية _ بعد القرآن الكريم _ إذ أَنَّ حُكْمَ الحديث النَّبَوِيِّ هو حكم القرآن من جهة المصدر: ﴿وما ينطق عن الهوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحي يوحى﴾¹ وأَنَّهُ توضيح وبيان له. وَشَرَّفَ بألفاظه التي يصقلها لسانُ نزل عليه القرآن بحقائقه، «فهي وإن لم تكن من الوحي، لكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله»² إذ انطوت على حظٍّ من الفصاحة الفطرية غير المتكلفة، مما لا يتهيأ مثله لرجل من العرب _ وهم أهل المقامات الرفيعة في البيان _ إلا بعد تعليم وتلقين ورواية، وذلك من توفيق الله؛ ليكون البرهان على رسالته أوضح.

وقد اشتملت أمّهات كتب الحديث المعتمدة، الموصوفة بالصَّحَّة والتَّوثيق على نصوصٍ قصصية كثيرة؛ إذ كان النبي أَوَّلَ من سَلَكَ نهج القرآن الكريم وَتَرَسَّمَ خُطَاهُ في توظيف القصّة كأسلوب مهمٍّ من أساليب الدَّعوة، يُحَوِّلُها قيم الإسلام ومعانيه، وَيُرَبِّي عليها الصَّحابة من رَعِيل الإسلام الأوَّل، ويوجِّههم من خلالها إلى استلهاهم هذا الدِّين عقيدةً في الفكر والتَّصوُّر، وطريقةً في السَّلوک وواقع الحياة.³ فالحكايات جُنْدٌ من جنود الله، يُثَبَّتُ بها قُلُوب أوليائه: ﴿وَكَلَّا نَقْصَّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرِّسَالِ مَا نُثَبَّتْ بِهِ فُؤَادُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁴.

وقد فَطِنَ العلماء المُحدِّثون ومؤلّفو كتب الحديث إلى هذه النصوص التي تميّز بشكلها القصصي، وفرّقوا بينها وبين غيرها من الأحاديث الشَّريفة. يقودنا إلى ذلك، تلك

الألفاظ الموثقة في مصادرهم، الدّالة على الأحاديث ذات الطّابع القصصي؛ ومن أمثلة ذلك عند (البخاري) (ت/256هـ) مثلاً قوله: "باب قصّة خُزاعة"⁵، و"باب قصة زمزم"⁶ و"باب قصّة غزوة بدر"⁷، وغير ذلك كثير. وعند (مسلم) (ت/ 261 هـ) كقوله: « باب قصّة أصحاب الأخدود و السّاحر والزّاهب والغلام »⁸.

وإذ تُشير إلى تمييز المُحدّثين التّصوّص ذات الطابع القصصي من غيرها، حين يستعملون لفظ " القصّة " أحياناً، ويتركونه أحياناً أخرى، لا نذهب إلى أنه كان يستعمل بالدلالة الفنية الدّقيقة، المصطلح عليها عند النّقاد والدّارسين المُحدّثين؛ إذ توجد نصوص قصصية كثيرة من الحديث النبوي الشّريف، لا نجدهم يسمونها بلفظ "القصّة"، نحو: "حديث الغار"⁹. على أنّ ما وُسم بـ "القصّة " منها، يبقى دليلاً على انتباه المُحدّثين إلى تواجد العنصر القصصي في تضاعيف الحديث النبوي الشّريف.¹⁰

والواقع أنّ القصّة لا تنحصر في مفهومها الحديث الذي يتعاطاه الدارسون اليوم بما يعني أنّ ما خَرَجَ عنه فقد خَرَجَ عن فن القصّة_ وإن كان في حقيقته يشكّل حلقة ناضجة من حلقات التّطوّر الذي تقلّب فيه هذا الفنّ عبر أزمان طويلة من تاريخ الحضارة الإنسانيّة_ بل هي أوسع من ذلك، إذ هي فن قديم تداولته كل المجتمعات البشريّة، ونشأ معها مُدُن نشأت، وما القصّة كما نعرفها اليوم إلا شكل من الأشكال التي اتخذها هذا الفنّ على مدى تاريخه الطويل.¹¹

وليست القصّة النبوية عملاً فنيّاً مستقلاً في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه_ كما هو الحال في القصّة الأدبية الفنيّة_ التي ترمي إلى أداء غرض فنيّ مجرد قيّومه الخيال وهدفه الإمتاع، ذلك أنها تخضع خضوعاً تامّاً للغرض الدّيني؛ إنّ على مستوى المضمون أو طريقة العرض¹²، فمضامينها تربوية إسلامية هادفة إلى بناء المحتوى الداخلي للإنسان، وتوجيهه إلى الانسجام مع التوجّهات الرّبّانية¹³، من مثل إثبات الوحي والرّسالة، وتحقيق التّوحيد ورسوخ العقيدة، ومظاهر القدرة الإلهية ودلائل النبوة، وبراهين الإيمان بالغيب، وعُقبى المُتّقين ومصارع الظّالمين، والقيم الدينيّة كالتوبة، والأخلاقية التي تنظم علاقة الإنسان بجماعته.. إلخ¹⁴، وذلك هدف عام ينطبق على الحديث النبوي كله، لا على القصص منه فحسب.

أمّا الأدوات الفنيّة والصّيغة في القصص النبوي، فما هي إلا وسائل لخدمة الأهداف الدينية المنوطة بها، وليست سابقة لها، ومع ذلك فهذا الخضوع للغرض الديني لم يمنع من بروز الخصائص الفنية فيها، من مخاطبة العقل والوجدان في عرض المواقف والحوادث تحقيقاً لهدفها الإقناعي والإمتاعي معاً، ودقّتها في الوصف والتعبير وبراعة الحوار¹⁵، وغيره مما يعدّ من خصائص النبوة وآيات الإعجاز في الكلام النبوي.

تناول الباحثون المحدثون الحديث النبوي الشريف بالدراسة من أكثر من جانب، ومن ذلك الدّراسات التي وقفت على القصص النبوي مستلهمة أبعاده التربوية أو مركّزة على دلالاته الفنية وتقنياته السردية، أو مستقرأة لبلاغة صوره الفنية، أو متبّعة لخصائص ومكونات بنيته السردية¹⁶، وهي دراسات وصفية أو تحليلية تنقّص الخصائص التي تميّز القصص النبوي معنئاً أو مبنيئاً، ولم نجد - فيما طالته أيدينا على الأقل - مَنْ اعتمد المقاربة السيميائية في دراسة القصة النبوية، الأمر الذي يعدّ جديد هذه الدّراسة.

فهذه مقاربة سيميائية لفنّيات القصّ في "حديث الغار"، أردنا من خلالها كشف المعاني المخبوءة تحت المباني، و وضع اليد على بعض خصائصه الفنية مثل الشخصيات والأحداث و دلالة المكان . ولا يخفى ما في طبيعة الأثر المدروس من خصوصية دينية، تتطلّب الحذر والتثبّت مراعاةً لاحترام حدود الشريعة، فإذا كان حرصنا على أن يُناسب المنهج النقدي الشعر العربي ويراعي خصوصيته ضرورياً، فإنه - والأمر يتعلّق بالنصوص المقدّسة - أشدّ ضرورةً، لهذا حرصنا على أن يكون المنهج وليد الدّراسة، وأن تكون أدواته طيّعة أمام طبيعته، وأن نبتعد عن مكننة النصّ النبوي بتجنب التطبيق الآلي لإجراءات المنهج السيميائي في تحليله، والذي يعنى عن إدراك الاختلاف الواقع بينه وبين غيره من النصوص، «فما يصدق من منهج على النصّ الإلهي (التفسير والتأويل) [أو النبوي]، قد لا يصدق بالضرورة على النصّ الأدبي الدنيوي، ثمّ ما يصدق - وذلك انطلاقاً من النصّ الدنيوي نفسه - على النصّ الروائي قد يستحيل أن يصدق على الشعر...»¹⁷ وما اللجوء إلى هذه المناهج الحديثة إلا من قبيل تطوير

آليات وإجراءات الدراسة، وتجديد المعارف في التعامل مع النصوص، بغية الوصول إلى مستويات أعمق في التحليل.

تحليل سيميائي لحديث الغار:

1. البنى القصصية في "حديث الغار" وأغراضها:

يُطالعنا (حديث الغار)¹⁸ بثلاثِ بنىٍ قصصية تشكّل مجمل المعنى فيه، تظهر بالنظرة الخارجية_ على أنها قصص صغرى ثلاث، تُكوّن القصة الكبرى الإجمالية، وهي عبارة عن مواقف أو أحداث حصلت مع ثلاث شخصيات خرجوا يمشون فأصابهم مطر، فلجأوا إلى غارٍ أو كهفٍ ليستظلوا فيه، فوقع حجرٌ وانطبق على مدخل الغار فسدّه. فعولوا على أعمالهم التي صدّقوا الله فيها، علّها تشفع لهم، ويُنجيهم الله من كربهم بصدقهم ذاك. فقدّم كلّ منهم عملاً صالحاً بين يدي الله: « حدّثنا إسماعيل بن خليل، أخبرنا عليّ بن مسهر، عن عُبيد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما ثلاثة نَفَرٍ ممن كان قبلكم يمشون إذّ أصابهم مطرٌ، فأوَّوا إلى غارٍ، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعضٍ: إنّ الله يا هؤلاء لا يُنجيكم إلاّ الصّدق، فليدع كلّ رجلٍ منكم بما يَعْلَمُ أنّه قد صدّق فيه...»¹⁹.

وكان وراء كلّ عملٍ من تلك الأعمال قصة أو واقعة حدثت لصاحبه تختلف في مضامينها، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة محاور أو بنى، حسب ترتيبها في الأصل: المال والمعاملات، التكفل الأسري، وصراع النزوات.

1.1_ البنية الأولى: المال والمعاملات:

وموضوعها استئجار تاجر_ وهو أحد الفتية الثلاثة الذين انسد عليهم الغار_ لعمالٍ بأجر ثلاثة آصُعٍ من أرزٍّ، ثم امتناع العامل عن أخذ أجر يومه؛ لأنه رأى أنّ عاملاً آخر يأخذ أجره نفسه، ولم يعمل إلاّ نصف عمله²⁰. ثم يستثمر التاجر أجر العامل الممتنع عن أخذه؛ فينمو المال ويشترى منه بقرّاً، ليعود العامل ويطالب بأجرته، فيعطيه الأجر وربحه: « قال واحدٌ منهم: اللهم إنّ كُنْتَ تعلمُ أنّه كان لي أجرٌ عَمَلٍ لي على فَرَقٍ²¹ من أرزٍّ، فذهبت وتركه، وإنّي عمدتُ إلى ذلك الفَرَقِ فزَرَعْتُهُ، فصار من أمره أنّي اشتريتُ منه بقرّاً، وأنّه أتاني يطلبُ أجره، فقلتُ: اعمدْ إلى تلك البقرِ فسقّها. فقال لي: إنّما لي

عندكَ فَرَّقُ من أَرَزَّ، فقلتُ له: اعمِدْ إلى تلك البَقَر؛ فإنَّها من ذلك الفَرَقِ، فساقها. فإنَّ كنتَ تعلمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلك من خَشْيَتِكَ؛ فَفَرَجْ عَنَّا، فأنسأحتُ عنهم الصَّخْرَةُ...»²²

تمثِّل هذه الحادثة الصَّغرى معاملة ماديَّة صحيحة بين العامل وربِّ العمل وأدائها كان وفق ما يطلبه الشَّرْع من الوفاء بحقِّ الأجير إذا أتمَّ عمله، بل إنَّ ربَّ العمل بالغ في استثمار أجرة العامل حتى نمت وصارت مالاً له بال، فكانت الأجرة وربحها للأجير، ولم تدعه وفرة المال إلى الظلم وأكل مال الغير بالباطل، وهو عين الإخلاص، الذي كان سبباً في بداية انزياح الصخرة وتحقق الفرج. كما أنَّها تتضمن أغراضاً وفوائد جمَّة أراد النبي أن يعتبر بها السامعون، ومنها:

- _ أنَّ امتثال الأمر متى ما قارنه الإخلاص، كانت الاستجابة محققة.
- _ وامتثال النهي عن المخالفات دليل الصِّدق واستقامة الحال، والاستجابة عند توقُّرهما محققة.
- _ وأنَّ التوسُّل إلى الله تعالى بالأعمال الصَّالحة مشروع مطلوب، وفيه ردُّ صريح على من ينكر التوسُّل إلى الله تعالى بالأعمال الصَّالحة، وهي أعراض، فكيف بالتوسُّل بمن صدرت عنه؟
- _ جواز الإجارة بالطَّعام المعلوم بين المتأجرين.

2.1_ البنية الثانية: التَّكْفُل الأسري

تمثِّل هذه البنية قصَّة رجلٍ _ وهو أحد الثلاثة الذين احتبسوا بالغار_ له أبوان كبيران ضعيفان ليس لهما وليٌّ غيره، كان يرعى لهما نهراً و يأوي إليهما ليلاً ليطعمهما فتأخَّر عنهما ليلةً لتنائي الكلا عليه، ورجع وقد أخذهما النوم، وأبنائه يبكون جوعاً فكان لا يطعم قبلهما أحداً، وكره أن يوقظهما فيردَّ عنهما وسَنَهما، كما كره أن يتركهما فيضعفا، فمكث ينتظرهما حتى الفجر: « فقال الآخر: اللّهُمَّ إنَّ كُنْتُ تعلمُ كان لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، فكنْتُ أتُهما كُلَّ ليلةٍ بلبنٍ غَنَمٍ لي، فأبْطَأْتُ عليهما ليلةً، فجئْتُ وقد رُقدَا، وأهلي وعيالي يَتَضَاعَوْنَ²³ من الجوع، فكنْتُ لا أسْقِيهم حتى يشرب أبواي، فَكَرِهْتُ أن أوقِظُهما، وكرِهْتُ أن أدْعِيهما فيَسْتَكِنَا لِشَرِّبَتِهما، فلم أزلُ أنتظرُ حتَّى طلع الفجرُ فإنَّ

كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرَجْنَا، فَأَنْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ...»²⁴.

وفي هذه القصة جانب كبير من جوانب التكفل الأسري، يظهر في برّ الوالدين وهما على ما هما من الضعف والحاجة وإيثارهما على الولد والأهل، وتحمل المشقة لأجلهما، فقد استثقل الرجل تقديم نفقة الفرع على الأصل، وترك أولاده ليكون كل الليل، رغم قدرته على تسكين جوعهم، طاعة لله فيهما، وإجلالاً لقدر حقهما عليه، وهو ما كان سبباً في تفريج الكرب وزيادة انزياح الصخرة.

3.1_ البنية الثالثة: صراع النزوات

يتعلق مضمون هذه البنية بقصة امرأة أحبها ابن عمها وهو أحد فتية الغار فراودها مرة عن نفسها، فامتنعت أولاً، ثم طلبت مالاً لحاجتها مقابل ذلك، فلما جمع ابن عمها المال وأعطاه إياه مكنته من نفسها، فلما هم بها، نهته للخطيئة التي هو مقبل عليها، وخوفته الله، فخاف وامتنع، وترك لها المال: «فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنه عم من أحب الناس إليّ، وإنّي راودتها عن نفسها فأبّت إلا أن أتيا بمائة دينار، فطلبتها حتى قدّرتُ، فأتيها بها فدفعتها إليها، فأمكننتني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها، فقالت اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه، فقمّت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا»²⁵.

تفصح هذه البنية عن عبر شتى، كالتخلي عن نزوات النفس، وعدم استغلال حاجة الآخر المادية، بداعي الإيمان والوقوف عند حدود النهي، فكان ذلك من أدلة المراقبة لله تعالى وخشيته في الشدة والرخاء، و«فضل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة عليه، وأن ترك المعصية يمحو مقدّمات طلبها، وأن التوبة تجب ما قبلها»²⁶ والتفضل بالمال على المرأة المحتاجة، والتي كانت ابنة عمه، وفي ذلك صلة للرحم، وكل ذلك هيأ لخروج الفتية من الغار.

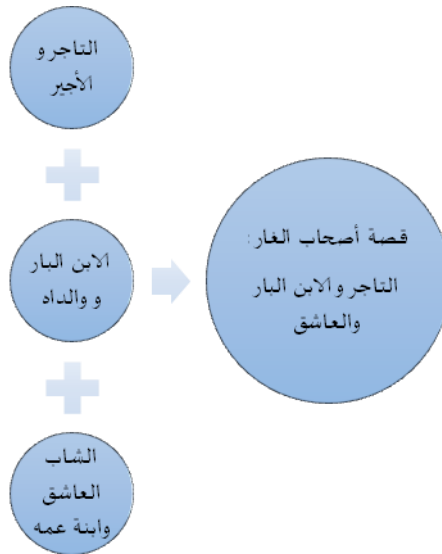
وأعمال الثلاثة الذين آوهم المبيت إلى الغار، يجمعها كلها تعدّي منفعتها للغير: للأجير والأبوين والمرأة، وكلما تعدّت منفعة العمل للغير كان أقرب لرضا الله تعالى، لما

فيه من التكافل وسدّ خلة المحتاجين، لذا كان موقع الصدقة جليلاً في الشرع سواء الواجبة أو التي للتطوع. وفي هذا الحديث الشريف توجيه المسلم إلى التضرع إلى الله واستحباب الدعاء في الكرب، والتقرب إلى الله بذكر صالح العمل، بشرط الاضطرار واليقين أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، واستنجاز وعده بسؤاله، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾²⁷ وقوله أيضاً ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِي﴾²⁸ وبشرط توقّر الدعاء وبخاصة الإخلاص والاستقامة ظاهراً وباطناً، بدليل ما ورد في حديث مَنْ يستعمل الحرام: «[إِنَّ] الرجل يطيلُ السفر، أشعثٌ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: ياربِّ ياربِّ، ومطعمُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ وغُدَيُّ بالحرامِ، فأنيّ يُستجابُ لذلك؟»²⁹ استبعاداً لقبول إجابة دعائه.

2. سيميائية الشخصيات:

الشخصيات المحورية في حديث الغار ثلاثة، وهم النّفر الذين اجتمعوا في الغار وانسد عليهم، ولم تردّ في نصّ الحديث إشارة إلى مظاهرهم الخارجية، أو هندامهم، أو حتّى أسمائهم، مراعاةً للإيجاز، وتقديماً للغرض التربوي، والتأثير في المتلقي من خلال التركيز على الحدث نفسه، أكثر من فاعله. وتلك إحدى السمات الفنيّة للقصة القصيرة³⁰ - غير أنّه يمكن استخلاص أوصافها المعنوية بناءً على حركتها في القصة، « فالطريق الذي تختاره الشخصية (من خلال الدّافع الذاتي أو بدافع من الآخرين) يُنبئ عن طبيعتها.. ومن خلال ما يصدرُ عنها من أفعال ترسمُ ملامح نفسها.»³¹

والشخصيات المحورية الثلاث: (التاجر المُقسِط، الابن البارّ، والشّاب المُغرم) تحافظ على محوريتها في القصة كبنية كبرى، وفي القصص الصغرى الثلاث المحكية من الشخصيات المحورية نفسها، والتي تشتمل عليها القصة ككل، وذلك ما تمثّله الخطاطة الآتية:



وهي تنهض بأدوار متقاربة في عِظم شأنها، حيث تشترك _على مستوى القصة الكبرى_ في إنجاز حدثٍ واحد فحسب هو الدّعاء بخير عملٍ قدمته كلّ منها، مما يجعلها شخصيات ثابتة أو غير ديناميكية. وتكون النّجاة من المحنة الواقعة، بفعل الأعمال الثلاثة أو الأدعية الثلاثة مجتمعة، مما يدعو إلى القول أن الشخصيات المحورية الثلاثة لا تكتسي أهمّيتها في ذاتها، بل تكتسبها في علاقتها مع باقي الشخصيات المكونة للنص القصصي. كما تتميز بواقعيّتها، كونها شخصيات ذات وجود فعلي، وليست خياليّة والقصة واقعية من أخبار الأمم السابقة.

الملاحع المعنوية للشخصيات في الوقائع الثلاث الصغرى:

_ التّاجر:

رجُلٌ ميسور الحال يمتنّ التجارة، ويستثمر المال، يستأجر عمّالاً للقيام بمهام ويلتزم في تسديد أجورهم، يستثمر أجرة عامل له بعد أن رفض أخذها، ليجنّي منها مالاً كثيراً، ثم لا يتوانى عن دفع الأجرة مع ربحها لصاحبها بعد أن جاء مطالباً بها، رغم عدم استساغة العامل لأخذ الرّبح. إنّ الطريق الذي اختاره التّاجر كان بدافع من الوازع الديني والأخلاقي، ومراعاة إقامة الحدود الشرعية وتقديمها على المصلحة الخاصة وكسر فتنة المال، بما يوحي بصدق الشخصية وقناعتها.

وهي إلى ذلك شخصية "فريدة (غير نمطية أو تقليدية)" قياساً إلى ندرة تحقُّق طباعها في فئة التُّجار تحديداً. و"ديناميكية"، نراها كيف تتحرك وتستثمر المال بزراعة فَرْق الأرز، ثم تبيعه وتشتري بقرّاً بثمنه، و"مسطّحة" لم تتغير طباعها طوال أحداث القصة، حيث تحافظ على عقّتها وقناعتها.

_ الابن البار:

هي شخصية مُعسّرة، لا تملك إلا أقلّ القوت، وتسعى جاهدة لتحصيل مثله كلّ يوم، تُعيل والديها وأبنائها معاً، حيث تخرج كل صباحٍ لرعي شُويّهات، لتعود في المساء بِشربةٍ لبنٍ تحلبه منها، لتجد الجميع في انتظارها على جوع، فتُؤثّر والديها على أبنائها مراعاةً لتقديم الأصل على الفرع، وتظهر مُقدّسةً لحرمة الوالدين، حريصةً على راحتهما وسلامتهما_ لا لشيء من أغراض الدنيا، بل طاعةً لله فيهما وتحقيقاً لرضاهما_ لما تعود مساءً وقد ناما، فتكره إيقاظهما لإطعامهما خشية إفساد نومهما، وتكره تركهما دون عشاء فيضعفا. فتمكث منتظرةً طوال الليل أن يستيقظا لتسقيهما أولاً. وهو سلوك ينيئ عن طيب معدن الشخصية وصفاء جوهرها، واستقامة أحوالها. وهي خصائص تحافظ عليها طوال القصة مما يجعلها شخصية "مسطّحة"، و"فريدة".

_ الشاب المُغرم:

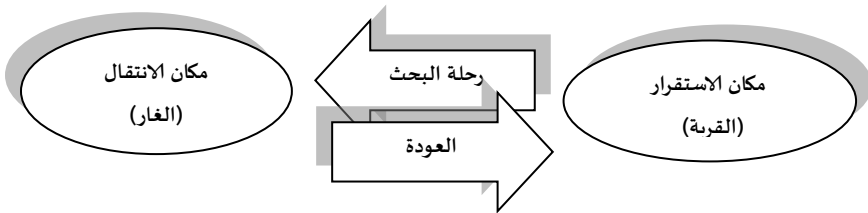
الشاب المغرم يمثل الشخصية البسيطة، "الحادة" (المتطورة السلوك عبر القصة). وتحليل بواعث السلوك المتحوّل بالنسبة لشخصية الشاب الذي أحب ابنة عمّه، وراودها عن نفسها ثم أحجم عن ذلك، يقودنا للحديث عن شيئين: الرغبة الجنسية والوازع الديني. فالشّاب هنا نزل بعاطفة الحب من السمو والصدق والإخلاص إلى الأنانية والاستغلال؛ لما تغلّبت عليه الشهوة وأعمت بصيرته، ففكّر الحصول عليها مقابل المال، مستغلاً العوز المادي لقربته، والتي امتنعت عن تسليم نفسها _ بعد أن همّت بذلك _ لتذكرها سخط الله ومقامها بين يديه. وكان هذا الباعث نفسه الذي حوّل سلوك الشاب من الإساءة إلى الإحسان، وأنقذه من تجاوز حدود الله، فترّاجع عن رغبته وترك لها المال وانصرف.

وهنا ينتصر الوازع الديني على الرغبة الجنسية بعد صراع بينهما، وينقلب اتخاذ المال كوسيلة استغلال، إلى وسيلة كسبٍ أجرٍ وإحسانٍ في ذوي القُربى، فتتعدّى المنفعة

بذلك إلى الطرف الآخر، وهذا يفيد أنه كانت في قلبه خشية ربه، وهي الأصل الذي ما يلبث أن يعود إليه هارعاً مهما عصفت بقلبه الأهواء، وجزاء ذلك عظيم عند رب العالمين؛ وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾³². وكان هذا هو العمل الذي أزيحت به الصخرة كلياً عن الفتية في الغار؛ فخرجوا.

3. سيمائية المكان القصصي (الغار):

لا يمكن الحديث عن الشخصيات في أيّ نصّ ذي بنية قصصية، دون إردافه بالإشارة إلى باقي العناصر الفنية المشكلة له: (المكان والزمان والأحداث)؛ إذ تلتحم بشكل يصعب معه تناول إحداها بمعزل عن تضمين الحديث عن الأخرى، ما يمنح كلاً منها أهمية خاصة، ومن ذلك عنصر المكان، الذي هو البيئة الحاضنة للأحداث «فحيث لا توجد أحداث، لا توجد أمكنة»³³، و الموحية بجزء كبير من المعنى، المتعلق بإحساس الشخصية ذاتها من خلال علاقتها بالمكان، وما يقوله عن مواقفها ونظرتها للحياة.³⁴ هذا وتتميّز القصة النبوية بخاصية الواقعية، التي تنسحب على كل معطياتها بما فيها المكان، بخلاف القصص الفني الذي يضعنا حيال عالم مُتخَيَّل محتمل الوقوع. فالمكان هنا (الغار) واقعي وموجود فعلاً، لكن السرد النبوي لم يُعَيِّن مرجعيته أو جغرافيته بالتحديد، بل ذكره بصفته³⁵؛ والقصة النبوية بذلك، إنما تحقق عنصر الإقناع لعقل ووجدان المتلقي، لكونه يتفاعل مع معطيات واقعية، لا وهمية متوقّعة. إنّ المتأمل في حركية الشخصيات وتنقلها في القصة، وكذا تطوّر انفعالاتها تبعاً لاختلاف طبيعة الأمكنة التي ترتادها، يسجّل انتقالها من مكان استقرار إلى مكان انتقال ثم عودتها مجدّداً إلى مكان الاستقرار:



فالقريّة أو البيوت التي تقطنها الشخصيات هي أمكنة للمكوث والإقامة والاستقرار. والغار الذي تفرّج إليه بعد ابتعادها عن الأهل، في رحلة بحث عن الرزق أو ما شابه، ثم تعرضها لطارئ وهو نزول المطر، هو مكان انتقال. يُشكّل البيت والقريّة التي تحيط به مكان الإيواء والمجال الذي تمارس فيه الشخصيات تفاعلها مع الحياة ويوحى بالاستقرار والألفة والسكينة. أمّا الغار، ورغم انزاله وبعده، إلا أنه يوحى في البداية بالأمن والطمأنينة والراحة؛ فالدخول إليه كان في ظرف اضطراري تطلب الفرار إلى مكان للاحتباء.

ثم يتحوّل بعد سقوط الحجر وانسداده فتحته إلى مكان ضيق مغلق مظلم موحش منفصل عن العالم الخارجي، لا يراهم فيه ولا يسمعونهم ولا يعلم بأمرهم بشر. مما أثار لدى الشخصيات مشاعر القلق والحيرة والخوف والشعور بالضيق، وهنا تنعدم الألفة بين المكان والشخصية. ولا ملجأ لهم حينها إلا إلى الله؛ فدعا كلّ منهم بأحسن وأصدق عمله، وأن يجعل الله جزاءه الفرج عنه، حتّى ترحح الحجر بقدرته تعالى وتهيّا لهم الخروج والعودة إلى مكان الاستقرار، وبذلك تأخذ معالم المكان (الغار) سمة الإعجاز والدلالة على قدرة الله المطلقة، وأن الصدق والاستقامة وامتنال أوامر الله متى ما قارنها بالإخلاص كانت الإجابة عندها محققة.

4. تحليل بناء الحدث القصصي:

الحدث مُكوّن مركزي من بين المكوّنات السردية الأخرى، يتأسّس بناءً على سرد الوقائع، ثمّ نظمها في عقد زمني. ونجاحه في النص القصصي يعتمد على مدى اتصال حلقاته، وعدم وجود تصدّعات أو نقاط ضعف أو غموض، ومدى شدّة انتباه المتلقي وحفاظه على حالة التّرقّب لما سوف يحدث³⁶. وتعتمد دراسة الحدث هنا على التركيز على مفاصله الأساسية وتطوّره، إذ يمكن تقسيمها إلى أجزاء ثلاثة، تشكل وحدة فيما بينها:

1.4_ البداية:

- "بينما ثلاثة نفر يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غارٍ": يبدو حدث البداية سريعاً مشحوناً بالمفاجأة، دالاً على ظرفية زمانية غير معروفة، ويأخذ فعل المشي صيغة الحاضر والحال مُفْرِزاً قيمة التجدد والتعامل الحي مع الزمن، أما حدث نزول المطر

فكان شيئاً طارئاً مفاجئاً، تلاه حدث الدخول إلى الغار الذي كان خاطفاً وسريعاً دون مهلة زمنية بين الحدين، و اللّذين يعتبران تمهيداً للأزمة التي ستقع بعدهما.

2.4_ الوسط (الأزمة):

• "فانطبّق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصّدق، فليدعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدّق فيه." يشكل فعل انطباق الحجر على فتحة الغار نواة القصة وذروة التآزم والتوتر، فتتحرك الشخصيات لتواجه الأزمة وتبحث عن مخرج، فتتناصح بالدعاء بما يُعتقد أنه أحسن العمل، وهو المعنى الذي أفاده فعل الأمر: (فَلْيَدْعُ).

• "فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير..فإن كنت تعلمُ أنّي فعلت ذلك من خشيتك؛ ففرّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة": تشرع الشخصيات الثلاث بفعل الدعاء والمناجاة فور تناصحها به، إذ يدل الماضي (فقال) على السرعة لاتصاله بالفاء الدالة على ترتيب الأحداث دون مهلة، بينما تدل عبارة: (اللهم إن كنت تعلم) على التردّد والشك في كون العمل المقدم بين يدي الله مجدياً وخالصاً وكافياً ومقبولاً، فالمؤمن يعلم قطعاً بأنّ الله يعلم. والشرط هنا يخص قبول العمل، على التقدير الآتي: (إن كان عملي مقبولاً، فأجب دعائي).

ويعود بنا فعل القص هنا إلى استرجاع الماضي الخاص بشخصية التاجر، واستحضارها لحسن صنيعها مع الأجير (تقنية الفلاش باك)، لتكون بداية الانفراج فقط، لا التخلص التام من الأزمة.

• "فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران .. فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك، ففرّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السّماء.": تدل عبارة (فقال الآخر) على أن فعل الدّعاء لم يتمّ في وقت واحدٍ عند الشخصيات الثلاث، بل جاء على الترتيب والتعاقب بينها، ودون متّسع زمني. كما صنع الانتقال من استعمال ضمير الغائب في البداية إلى استعمال ضمير المتكلم مفارقة وتنوعاً، وشكّل ضمير المتكلم (لي، أني) ضرب من الحوار الخلفي أو المناجاة الذاتية انتقلت فيه شخصية الابن البارّ من مركز استقبال الحدث إلى مركز صنعه، فأتاحت

بذلك للمتلقى متابعة الحدث وكأنه الشخصية، ومتابعة الشخصية وكأنها الحدث³⁷ وذلك ما ينطبق على سائر الشخصيات الأخرى التي استعملت ضمير المتكلم في المناجاة شأنه في ذلك شأن تقنية استرجاع الماضي، حيث شكّل حسن صنيع الابن البار مع والديه انفراجاً جزئياً إضافياً للأزمة، مكن الشخصيات من النظر إلى السماء.

● فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم ... فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك، ففرّج عنا: "تظهر في هذا المقطع، وفي القصة عموماً جودة في رسم الأحداث باصطناع الأزمنة الثلاثة مجتمعة: الماضي (فقال، كنت، راودتها..) والحاضر: (لا تفضّ الخاتم)، والمستقبل (أتق الله) إذ تقفز الأحداث قفزات رشيقة بين الأزمنة؛ فتكسر رتابة حركية السرد القصصي. وقد مثّل هذا المقطع المرحلة الأخيرة من الأزمة، التي أشرفت على الانفراج، ومثّلها حسن صنيع الشاب المغرم مع ابنة عمه.

3.4_النهاية:

● "ففرّج الله عنهم، فخرجوا:": أعطت النهاية للأحداث طابعاً إعجازياً؛ فالحجر أزيح عن الغار بقدرة من الله والخلاص كان لطفاً منه وبسبب قبول أعمال الشخصيات الثلاث لإخلاصهم لله فيها، وتدل على ذلك الفاء السببية: (ففرّج). وانفراج الأحداث اتّسم بالتدرج والتصاعد؛ إذ تداخل مع مرحلة الأزمة وتخللها، فكان يكسر حدتها تدريجياً. كما اتسمت مرحلة النهاية بتسارع مسار الحدث، فالخروج تم فور انزياح الحجر، وأوحى بتعطش الشخصيات للخلاص. وبانفراج الأزمة كلياً تنتهي حالة الترقب لدى المتلقى.

خاتمة:

يقوم "حديث الغار" على ثلاث بنى قصصية، تشكّل مجمل المعنى فيه، وهي: (المال والمعاملات، التكفل الأسري، وصراع النّزوات)، تتضمن أغراضاً تربوية وفوائد للمتلقى. وتتميز القصة النبوية بخاصية الواقعية التي تنسحب على كلّ معطياتها بما فيها الشخصيات والمكان، ويتحقق من خلال ذلك عنصر الإقناع. فالشخصيات المحورية فيه لا تكتسي أهميتها في ذاتها، بل في علاقتها مع باقي الشخصيات المكوّنة للنص القصصي ويكون التركيز على الحدث أكثر من الفاعل خدمة للغرض التربوي دائماً. أمّا

معالم المكان (الغار) فتأخذ سمة ما هو معجز، وتدلّ على قدرة الله المطلقة. وتجدر الإشارة إلى أن الألفاظ مع الأسلوب في حديث الغار ينهضان على جماليات كثيرة، سيكون من المهمّ جعلهما محورَ بحثٍ لدراسات أخرى مكتملة، إذ لم يتسع المجال هنا لأكثر ممّا قدّمنا.

*** **

الهوامش:

- ¹ النجم/4.3.
- ² مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط (1424هـ/2004م)، ص 193.
- ³ ينظر محمد بن حسن الزّير: القصص في الحديث النبوي (دراسة فنية موضوعية)، دار المدني للنشر والتوزيع، جدّة المملكة العربية السعودية، ط3 (1405 هـ/1985م) ص66.
- ⁴ هود / 120.
- ⁵ محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، دار طوق النّجاة، بيروت- لبنان، ط1 (1422هـ)، ج4، ح 3520، ص 184.
- ⁶ المصدر نفسه، ج4، ح 3522، ص 182.
- ⁷ المصدر نفسه، ج5، ح 3951، ص 72.
- ⁸ مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط1 (1412هـ/1991م)، ج4، ح 3005، ص 72.
- ⁹ محمد بن إسماعيل البخاري: المصدر نفسه، ج4، ح 3465، ص 172.
- ¹⁰ ينظر محمد بن حسن الزّير: القصص في الحديث النبوي (دراسة فنية موضوعية)، ص 75.
- ¹¹ ينظر محمد حسين هيكّل: ثورة الأدب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط 2012، ص 55.
- وكذا: محمد بن حسين الزّير: القصص في الحديث النبوي، ص 89.
- ¹² ينظر فوزية بنت عبد الله بن سند العصيمي: الوجوه البيانية في القصة النبوية وأسرارها الدقيقة، رسالة ماجستير، إشراف: عبد العزيز أبو سريع ياسين، جامعة أمّ القرى، المملكة العربية السعودية، 1420هـ، ص 119.
- ¹³ عبود شلتاغ: في القصة النبوية: المضامين والفن، مجلة الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مج: 14، ع 53، 1428 هـ/2007م، ص 5.
- ¹⁴ ينظر محمد بن حسن الزّير: القصص في الحديث النبوي (دراسة فنية وموضوعية)، ص 373_423.
- ¹⁵ فوزية بنت عبد الله بن سند العصيمي: المرجع السابق، ص 120.

- ¹⁶ ينظر رميض مطر حمد الدليمي وعبد الكريم محمد خلف الجنابي: جهود الباحثين المحدثين في دراسة الحديث النبوي الشريف (الدراسات ذوات المنحى السردى نموذجاً)، مجلة جامعة الأنبار للأداب واللغات، العراق، ع11/2013، ص 127_150.
- ¹⁷ عبد الملك مرتاض: نظام الخطاب القرآني (تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن)، دار هومة، الجزائر، ط 2001م، ص 23.
- ¹⁸ رواه البخاري في مواضع من صحيحه، مثل كتاب الأنبياء، باب "حديث الغار"، دار طوق النجاة، ج 4، ص 173، ورقمه: 3465. وكتاب البيوع: باب "إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي"، ج 3، ص 79، ورقمه 2215. ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب "قصة أصحاب الغار الثلاثة"، ج 4، ص 2099، ورقمه 2743.
- ¹⁹ أبو عبد الله محمد البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب "حديث الغار"، ج 4، ص 173، حديث رقم: 3465.
- ²⁰ تعليل سبب ترك الأجير لأجره ذكره أبو الحجر العسقلاني في كتابه: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، إخراج وتصحيح: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت - لبنان، (د.ر.ط.)، ج 6، ص 507.
- ²¹ الفرق: مكيال يسع ثلاثة أصع.
- ²² أبو عبد الله محمد البخاري، المصدر السابق، ج 4، ص 173، حديث رقم: 3465.
- ²³ يتضاغون: يصيحون ببكاء.
- ²⁴ المكان نفسه.
- ²⁵ المكان نفسه.
- ²⁶ أبو الحجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 6، ص 510.
- ²⁷ النمل / 62.
- ²⁸ البقرة / 186.
- ²⁹ رواه مسلم: كتاب الزكاة، حديث رقم 1015، ص 703.
- ³⁰ ينظر إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة (النظرية والتقنية)، تر: علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة: صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2000م، ص 31.
- ³¹ المرجع السابق، ص 327، 328.
- ³² النازعات / 41
- ³³ جبرار جنيت، كولد نستين، وآخرون: الفضاء الروائي، تر: عبد الرحمن حزل، منشورات إفريقيا الشرق، لبنان، (د.ر.ط.)؛ 2002، ص 6.
- ³⁴ ينظر نبيلة إبراهيم، فن القص في النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ر.ط.) (د.ت.)، ص 140.
- ³⁵ المكان في القصة النبوية ببعده الواقعي يظهر في صورتين: المكان المحدد جغرافياً كالمسجد الحرام، وبيت المقدس، وزمزم، وغيرها، والمكان غير المصرح باسمه، المذكور بصفته كالجبل والبحر في قصة أصحاب

- الأخدود، والصخرة التي نام عندها موسى عليه السلام وفتاه في طريقهما إلى مجمع البحرين ... إلخ. ينظر: سهام سديرة: بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف، (مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي)، إشراف: رايح دوب، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006/2005.
- ³⁶ ينظر إنريكي أندرسون إمبرت: القصة القصيرة (النظرية والتقنية)، ص 123، 129.
- ³⁷ ينظر عبد الملك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ر.ط)، 1990 ص 83.